العلامة الدكتور فريد الأنصاري (رحمه الله) والدروس التي لا تنسى(2)

لمحات ولفحات

أخرج الإمام البخاري قال : حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي أُوَيْسٍ قَالَ حَدَّثَنِي مَالِكٌ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :" "إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا".

الحمد لله، والصلاة والسلام على رحمة الله للعالمين، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. وبعد:

فإن الدروسَ والعبر من قبْضِ عَالِمِنَا الأنصاري-رحمه الله- لا تكاد تنتهي! وأبرزها ضرورة الاعتناء، بقدواتنا وسادتنا العلماء، وخصوصاً الأحياءَ؛ فإنما الناس بقادتهم وسادتهم- كما جاء في كلام ابن مسعود- رضي الله عنه-: **" المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة"**[1]!

فإذا قُبِضَ الفقيهُ القدوة؛ قُبِضَ معهُ العلم والفضل! وعمَّ الظلام والجهل! ولله در القائل:

وما كنتُ أدري ما فواضلُ كفِّه   على الناس حتى غيَّبته الصفائحُ

فأصبح في لحدٍ من الأرض ميِّتا   وكانت به حيّاً تَضيق الصَّحَاصحُ

وفي الحِكَم:"**من جهل شيئا عاداه**"، أو -في أحسن الأحوال- أهمله!. ومن ثَمَّ وجب- سادتي- الاحتفال[2]، بعلم التراجم والرجال. فكم من علوم ضاعت بسبب الإهمال! سيما وأن علماءنا المغاربة، موسومون-في الجملة- بهضْم النفس، والبعد عن الأضواء، إلى حد كبير! ولا يَقبلون من أحد أن يُترجم لهم، بَلْهَ أن يُترجموا لأنفسهم بأنفسهم. ولم يشذَّ عن هذه العادة إلا نزر يسير، من أمثال: العلامة الوزير، محمد الحَجَوي الفاسي الثعالبي، (الذي ترجم لنفسه-على خجل- في الفكر السامي)، وإمام الأدب، لسان الدين بن الخطيب، وإمام التاريخ ابن خلدون..، وغيرهم.

ولا ندري كيف ستعرف الأمة رجالها وعلماءها إذا أهملنا فن التراجم والسير! ولم يسْعَ القادرون منا-مثلا- إلى إماطة اللثام عن سير هؤلاء الأعلام، بالشكل التقليدي المعروف، أوْ بفتح مواقعَ إلكترونيةٍ، علمية، راقيةٍ؛ تواكب العصر، وتستشرف المستقبل، وتحترم الآخر..

ولقد أفضَيْتُ بهذا الهمِّ إلى بعض الغُيُرِ الصُّبرِ، من أحبَّائي، وقلت فيما قلت: إن هذا دورُكم أنتم- معشر المثقفين- قبل أن يكون دورَ السادة العلماء النبلاء، الهاربين من الأضواء. وظيفتُكم أن تُنقِّبوا عن علمائكم وأكابركم، في الحواضر، والبوادي، والسهول، والجبال، والداخل والخارج، وأن تُعرِّفوا بهم -كلٌّ من موقعه وبحسَبه- قبل الموت، وفوات الفوت!

وقديما قيل:" **من تحرَّق تحرَّك**"! وأما البكاء والرِّثاء، وسرادقات العزاء؛ فهو جُهد من لا جهد له- من أمثالنا-. وبأي وجه ياتُرى ينتفع العالم بمَرْثِيَّاتنا وبكائياتنا إذا عقَقْناه حيا، وضيعناه ميتا! ورحم الله الشاعر:

لا ألفينَّك بعد الموت تَندُبُني   وفي حياتي ما زوَّدْتَني زادي

---

[1] رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد.

[2] المبالاة والاهتمام

ما قيمة الدموع ياناس! إذا لم نضرب الحديد وهو ساخن -كما يقول المثل - ونقوم الآن الآن لخدمة تراث الأنصاري، والتنقيب عنه، وتنظيم أيام دراسية لقراءته، قراءة علمية، نقدية، أكاديمية..، تشارك فيها المجالس العلمية، والمنتديات الفكرية..، ويُدْلي كلٌّ برأيه- موافقا أو مخالفا-. فهل من مجيب؟! لعل ذلك قريب.. ولكن؛ هل سيكون ذلك على أيدينا- نحن العرب- أمْ على أيدي إخواننا الأعاجم مرة أخرى؟

لغة العلماء

وبعض الخَيِّرِينَ-مع الأسف- لا يفقَهون لغة العلماء، و أذواق العلماء، ويأخذون كلامهم على عواهنه، دون مِيزٍ وإدراك. وعلى سبيل المثال: فإن العالم إذا أطرق الرأس، وقال: أنا لست أهلا لكذا! ومن أنا؟! أنا طُويلب علم، أو طالب قرآن.. اذهبوا إلى غيري... أو ما أشبه ذلك من اعتذار؛ فإن ذلك لا يعني بالإشارة أو اللزوم أنه ليس عالما —على الحقيقة- كما يتصور الأغرار.. لا لا؛ بل هو أسلوب في الإيثار والاعتذار، لا أقل ولا أكثر. إذاً، ليس من الذوق والذكاء أن نردد وراءه ما يقول، ونؤمِّنَ عليه، ونعملَ بموجبه! بل نَحْمِل ذلك كلَّه أو جُلَّه على مَحْمَل التواضع والورع.. مع حفظ المقامات والرتب، دون إفراط أو تفريط. ذلكم أن العالم- أيّاً كان - لا يملك إلا أن يتواضع ويتورع؛ لأنه يرى دائما من هو أعلم منه، وأصلح منه، وأولى بالمقال، شريطة التوسطِ والاعتدال، ومراعاة الحال والمآل. وما أجْمَلَ المقولَةَ التَّربويةَ الرائدةَ! للفاروق عمر رضي الله عنه :" **يابْن أخي! قُلْ ولا تحقِرْ نفسَك!** "[3]

وإذا كان بعض الشيوخ المشارقة- أعزَّهُم الله-! قد توارثوا التعريف بأنفسهم - تحدثاً بالنعمة- كما تواتر ذلك في كلامهم، وسِيَرِهم الذاتية، ومواقعهم الإلكترونية؛ فإن فقهاء المغرب- رفعهم الله-يَغْلِبُ عليهم التواضع، والخمول، وهضم النفس، وخصوصا خريجي المساجد والمعاهد- كما لاحظ ذلك قديما الإمام ابن الحاج، العَبْدَري الفاسي، في كتابه المدخل- والخير كله في الوسطية والاعتدال.

ولعلَّ الحلَّ الوسط هنا هو: أن يقوم مقامَهم في هذا التعريف تلاميذهم وأشياعهم، أو أن يُستدرجوا إلى ذلك عن طريق الحوار والمدارسة، على غرار برامج" مراجعات" أو" علماء يتذكرون" أو "زيارة في بيت عالم"[4].

وهل يُنْتظر-على سبيل المثال- من الأستاذين الجليلين، الحييين، الورعين، سيدي عبد الله بن المدني، ومولاي مصطفى البوحياوي[5]، أو أشباههما[6]، أن ينشروا سيَرهم، ويتكلموا عن أنفسهم؛ مهما كانت الذرائع والأسباب؟!! فمن ياتُرى سيكشف اللثام عن تراجم هؤلاء الأعلام؟ من يقدمهم للناس؟ من هذا الْفَهِمُ النَّهِم الذي يستطيع أن يجرُّهم جرّاً إلى المحافل اللغوية، والمجالس العلمية، والمجامع الفقهية؛ حتى يغترف الناس من معينهم، ويشرَبوا من قلوبهم؟! و"من دلَّ على خير، فله أجر فاعله"[7]

وليعذرني أساتذتي وسادتي! إن غامرتُ فقلت: إن هذا التواضع المُفْرِطَ-إذا وزَنُوه بميزان الشريعة — قد فوَّتَ على أمتنا كثيرا من النفع، وجلَب لها كثيرا من الضُّرِّ! فبسببه حُرِمْنا -على سبيل المثال- من فرائد ودُرَرٍ (وربما في هذه الدُّررِ الدرَّةُ اليتيمة)

[3] صحيح البخاري.

[4] برامج تلفزيونية معلومة في قناة السادسة والحوار.

[5] على سبيل المثال لا الحصر- وإلا فالقائمة طويلة، ومشرفة، والحمد لله، وكل عالم من علمائنا اختصه الله بشيء ، قد لا تجده عند غيره. فهذا قوي في علوم الآلة، وذاك قوي في علوم الرواية، والآخر عالم بالله تعالى، وغيره فقيه بالشرع والواقع...وهكذا.. (والعلم الكامل المطلق لله وحده).

[7] رواه مسلم.

علاَّمةِ الدنيا، ومفخرة الزمان، سيدي محمد سالم الشنْقيطي، الشهير بابن عدُّود. فلقد كان- رحمه الله- لا يأذن بتسجيل دروسه صوتياً- كما رُوي عنه- بذريعة أن الحديث الشفوي لا يخلو من حَشْوٍ وركاكة وتكرار، وما أشبه ذلك من أعذار!- وهل البشر إلا رادٌّ ومردود عليه؟ ومثله أساتذةٌ لنا بالمغرب - نفعنا الله بهم- فَنِيَت أعمارهم في العلم والتعليم، والتربية والتوجيه، وما سجَّلوا، ولا طبعوا، ولا نشروا، ولا حاوروا، ولا أذِنوا بقليل ذلك أو كثيره! على حين، أنَّ العوامَّ، أو أشباه العوامِّ، ينشرون صوتيات، ويطبعون ورَقات، قد لا تساوي الحِبْرَ الذي كُتبت به!

ولله در القاضي بن عبد الوهاب المالكي القائل:

متى يصل العِطاشُ إلى ارتواءٍ إذا استقت البحار من الرَّكايَا

ومن يَثْنِي الأصاغرَ مِن مُرادٍ وقد جلس الأكابرُ في الزَّوايَا

نداء ورجاء

ياإخوتي، أدْرِكوا أدركوا – رحمكم الله- البقية الباقية، من الكواكب الدُّرِّيَّة! – سيما علماء البادية- فهم يُقْبضون -بصَمْت- يوما بعد يوم، فيُقبضُ معهم العلم الثمين، الذي لا يوجد عند غيرهم![8] ولنعْتبرْ بقول إمام أهل الشام، سيدنا خالد بن معدان الكَلاَعي- رحمه الله-:" إذا فتح أحدُكم بابَ خير فليُسرع إليه، فإنه لا يدري متى يُغلقُ عنه"[9].

ويخطر بالبال-على سبيل المثال- اسْمُ فقيه مالكي جليل، يُدْعى بالأستاذ التاويل -وهو من أشياخ الفقيد فريد- عرفه الأبعدون؛ فازدحموا على بابه ينهلون! وزهد فيه الأقربون؛ فانفضوا عنه وتركوه! -مع الأسف- وهكذا حال الناس دائماً، متى قرُب منهم الخير زهدوا فيه. ورحم الله الإمام ابن الجوزي الذي شكا قديما حجاب المعاصرة والمساكنة؛ فقال هذه الأبيات مُعرِّضا بأهل بغداد[10]!:

عذيريَ من فتية بالعراق قلوبهم بالجفا قلب

يرون العجيب كلام الغريب وقول القريب فلا يعجب

ميازيبهم إن تندت إلى غير جيرانهم تقلب

وعذرهم عند توبيخهم مُغَنِّيةُ الحي لا تُطرب

فيأهل فاس القرويين،!"إنما أعظكم بواحدة": أن تغتنموا هذا الفقيه المكين، وأمثاله من العلماء الصالحين، قبل فوات الأوان! وأنتم أدرى بأسمائهم، وألقابهم، ومواقعهم، وطبقاتهم، ومراتبهم.. ابحثوا عنهم بالفتيل والقنديل.. ابحثوا عنهم دارا دارا، وزنقة زنقة..، وسجلوا أصواتهم، ودوِّنوا أفكارهم وأخبارهم، ولا تخشوا إزعاجا ولا إحراجا..، ولا أي شيء مما يتعلَّل به الطيِّبون الخيِّرون؛ فإن سعادة العالم الحي في التعليم، والتفاعل مع الأجيال الصاعدة، الواعدة، وتوريثها الخير والفلاح، والعلم والحكمة .

---

[8] ومن أراد المثال فليقرأ كتاب "فتاوى تتحدى الإهمال في جبال الشمال" لابن عمومتنا وأستاذنا محمد الحبطي المواهبي رحمه الله.

[9] سير أعلام النبلاء للذهبي.

[10] وفيات الأعيان لابن خلكان.

نعم، سعادة العالم الحق في أداء الرسالة، وإبراء الذمة، ولا سيما في مرحلة الشيخوخة والضعف. ورحم الله من قال:" العلماء لا يتقاعدون ولا يستقيلون" .

اغتنموا اغتنموا أستاذَ الجيل، وقِبْلةَ الباحثين، العلامة الدكتور الشاهد البوشيخي- أمتع الله به- فمِن صُلْبه العلمي خرج فريد وأمثاله. ولولا الشاهد لما كان فريد!- كما هي سنة الله في العلم والتعليم- . وليس من النَّصَفَةِ ولا منَ الذَّوْقِ أن نذكر التلميذ، وننسى الأستاذ!

فالله الله يا أهل "**الفطرية**"[11]! في هذا الكنز المخفيِّ، والعالم الذكي، الذي انتفعنا به ولم نره! والله الله في شقيقه وصديقه الأستاذ العالم الفقيه المربي، سيدي أحمد البوشيخي، الذي تخرجت على يده أجيال، وخرج من صلبه رجال، ولا يزال يعطي ويكابد-عافاه الله- رغم الآلام والأسقام.

وانتفعوا — نفعنا الله وإياكم- بالأستاذ الهراس، وبقية رجال فاس، (صانها الله من كل باس**!**)[12]

وأنتم يا أبناءنا العَطْشى في مساجد الغرب، ومعاهد الغرب! "انظروا عمن تأخذون دينكم"[13] حَذارِ أن تأخذوا دينكَم-الذي هو عصمة أمركم- عن الأصاغرِ، والنَّكِرات، والمجاهيل، والمجانين!!. الذين خلا لهم الجوُّ في هذا الزمان؛ فباضوا وفرَّخوا، وعثَوا وأفسدوا!!!

خذوا دينكم عن الأثْبَات الثِّقات، المشهود لهم بالعلم والعرفان، والوسطية والاعتدال، أمثال العلامة الأنصاري —رحمه الله- الذي زكَّاه القاصي والداني، والحاضرُ والبَادِ!. -وكان عضوا بارزا في المجلس العلمي الأعلى-، وأستاذا للأصول بالجامعة، وجنازته التاريخية أبلغ دليل! وصدق رسول الله:" أنتم شهداء الله في الأرض"**!**[14]

وحسْبُنا هذه الشهادة العزيزة، للكاتب العام للمجلس العلمي الأعلى، معالي الأستاذ الدكتور ، محمد يسَّف، حيث صرَّح للتلفيزيون، في مقبرة الزيتون، بقوله:

"إن فريداً كان اسماً على مُسَمًّى،... فريدٌ، لا أعتقدُ أنَّه يَسْهُلُ أن يُبْنى مثْلُه في هذه الأيام" انتهى.

والناس أكيَسُ من أن يحمَدوا رجلا حتى يروا عنده آثارَ إحسانِ

وأنتم يافقهاءنا! ويامحطَّ آمالِنا! خذوا الدرْسَ القاسي، من جِنَازة السِّجْلِماسي (فريد)!

[11] موقع الفطرية (فريد الأنصاري).

[12] **عبرة:**

روى الدكتور أحمد كمال أبو المجد، عن الدكتور عبد العزيز كامل المصري-نائب رئيس الوزراء المعروف- أن أحد الأعاجم قال له:" لو كان عندنا مثلُ عالمِكم العظيم!- الإمام محمد أبوزهرة - لَوَكَّلْنا بِهِ كاتباً يَمْشِي معه، ويُدَوِّنُ ما يقول"!.

يقول مُقيِّدُهُ-عفا الله عنه-: وَمَنْ شاهدَ صَنِيعَ الأعاجِم مَعَ عُلَمائِهِمْ، وأئمَّتِهم، وعُظَمائِهِمْ- وخاصة الأتراك- خطر بباله قولُ الرسول الأكرم:" وَيْلٌ لِلعَرَبِ، مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ"!.

[13] مقولة مأثورة عن إمامنا مالك رحمه الله.

[14] رواه البخاري ومسلم

إن اللقب، والمنصب، والأضواء، والشاشات، لم تكن ياسادتي، لتَشُلَّ حركة المواصلات، وتَحْمِلَ الألوف على قطع المسافات، والوقوف ساعات وساعات، للمشاركة في التشييع والدعوات؛ ما لم يُسَخرها فاطر الأرض والسماوات..![15] فهي إذاً إشارة إلهيةٌ، وشهادة ربانيةٌ، تدلُّ – إن شاء الله–على قبول الله لعبده الأنصاري – حيّاً وميتاً– وصدق أخونا الفقيه الدكتور عبد الله الهلالي:" لقد كانت حياةُ فريد دعوة، ووفاتُه دعوة"!!

ألا ليت المخدوعين– مثلي– يسْكُبون العَبْرَة! ويأخذون العِبْرَة من هذا المصير، الذي آل إليه الأخ الأثير! فتالله إنَّ سُكَّرَةَ الحياة قد أنْستْنا السَّكْرَةَ [16]! وفعلت فعلها في قدوات الأمة! ومنارات الملةّ!

ياعلماء الدين ياملح البلد مايصلح الملحَ اذا الملح فسد

وأزعم؛ بل أقْطَعُ– إن شاء الله– أن من أسباب عزة الأنصاري –رحمه الله– الزهدُ والْقَناعَةُ، وتوقُّعُ الموتِ في كلِّ ساعة! وحسبي من الأدلة والشهود، قول سيد الوجود:"ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس"[17]

أجل! لقد كان هاجسُ الغروبِ يطاردُ أخانا في حله وتَرحاله، ونطقه وصَمته!– كما ذكرَ أهل الوجدان والعرفان– وكأنه يُطِلُّ على عالم البرزخ مِن عَلٍ؛ مردِّداً بلا ملَلٍ:" يأيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك كدحا فملاقيه"! الانشقاق. وقوله عليه الصلاة والسلام:" كن في الدنيا كأنك غريب، أوْ عابرُ سبيل"!

فما ظنكم بامرئٍ ودَّع أهله، وحمل حقيبته، وجلس في قاعة الانتظار، ينتظر القطار؟! – قطار الأجل–

وأيّ رعونة تبقى –ياسادة– فيمن قطع الإياس من الناس، وتعلق برب الناس، ملك الناس، إله الناس !؟

ولا أذيع سراً من حياة أخينا العلامة الأنصاري، إن قلتُ بأنه لقي الله تعالى متوسِّطَ الحال، قليل المال، نظيفَ اليد، بعيداً عن كل مظاهر البذَخ والترف! وهو الأستاذ الجامعي، والموظف الرسمي! –الرئيس السابق للمجلس العلمي– وما سمعناه يوماً يتحدث عن دُور، أو قصور، أو فنادق، أو مطاعم، أوْ مكافأة، أوْ هِبَة، أوْ ربح، أو خسارة...؛ بل كان يمُشِّي الحالَ، ويَقْبَلُ المَوْجودَ، وكأنه ينطق بقولِ ابن الرومي:

أنَا منْ خفَّ واستدقَّ فما يُثقِلُ أرضاً ولا يسدُّ فضاءَ

وما العيب ياسادة، أن يكون العالمُ ذا بسطة في المال، أو الجاه..؛ بل إنَّ من شرط العالم المفتي: "الكفاية، وإلا مضغه النَّاس"[18]؛ ولكن العيب كل العيب في أن ينال العالم هذه الكفاية، بإشراف ومسألة، وخنوع وذلة، واحتيال وشبهة.. !!. العيب أن تكون الدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، ومنتهى أمله.. العيب أن يخوضَ مع الخائضين، ويُخربقَ[19] مع الْمُخربقين، حتى ياتيه اليقين.

وكان الشيخ–يرحمه الله– شديدَ التحرُّز من أموال الصدقات، والكفارات، والأوقاف..؛ داعياً العاملين عليها إلى مراقبة الله تعالى في كل ذلك. ولا ندري كمْ في أمة الإسلام من نظير لهذا الزاهد الكبير!

---

[15] قبيل الصلاة على الشيخ فريد، اتصلت هاتفيا بعالمنا وشيخنا ، سيدي عبد الله المدني؛ فأخبرني بأن المشيعين لا يحصون كثرة. !!

[16] إشارة إلى قوله تعالى" وجاءت سكرة الموت بالحق" سورة ق.

[17] رواه ابن ماجة بسند حسن

[18] مقولة للإمام أحمد ، ذكرها ابن القيم في: إعلام الموقعين""ومن لا دنيا له لا دين له" ،كما قال شكيب أرسلان.

[19] قال صاحب اللسان وخَرْبَقْت الثوب أي شققْته وخَرْبَق عَمَله أفسده

بصيرة

ما عالمٌ–سادتي– ليست عنده عفةٌ ورفعة، ودَمْعَةٌ ولَوْعةٌ؟ ما عالم يشترى الفاني بالباقي، والعذاب بالمغفرة؟ ما عالم ليس له طعم ولا ذوق ولا رائحة !؟ ما عالمٌ يرحل إلى ربه صِفر اليدين، أقطع أبترَ ، لا ذِكْر ولا أثَر!! ما أشد حسرة هذا العالم يوم القيامة! "حيث كان معه آلة يتوصل بها إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، فلم يستعملها إلا في التوصل إلى أخس الأمور وأدناها وأحقرها، فهو كمن كان معه جواهر نفيسة لها قيمة، فباعها ببعرة..." [20].

نداء ورجاء

ياإخوتي الأوفياء! تعالوْا إلى كلمة سواءٍ! أن نعيد قراءة "أعمال" الشيخ فريد- رحمه الله- بنَفَسٍ جديد، ونظر حَديد، فوالله إنها- في الجملة- لمباركة طيبة، مُثْمِرة نافعة![21]

إنها- كما يقول النقاد- قطعة أدبية نادرة، تؤنس القلب، وتغذي الروح..، ناهيك عن فقهها الغزير، ونظمها البديع! وكأنكَ تقرأ –حقيقة- للعلماء المتقدمين، والأدباء المتفقهين، من أمثال ابن الجوزي، والقاضي ابن العربي، والقرافي المالكي، وعلي الطنطاوي، والنَّدْوي، والغزالي..وقلَّ من العلماء المعاصرين من جمع الله له هذه المواهب، وحباه بهذه الفتوح، وصدق الله: "ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده" فاطر.

همْسَة:

فيامن حجَبت الدعايةُ السُّوآى حقيقةَ فريد عن عينه؛ فعاداه مخدوعا بالقيل والقال !. اخرج — هداك الله– من هذه العَتَمَة! أبصر النور، واكشف السُّتُورَ! اكشف السُّتور بيدك أنت أنت؛ تَرَ الحقائق!

إقرأ بنفسك كتب الأستاذ، ومقالات الأستاذ، واسمع دروسه، وتأمل سيرته ومسيرته، وزر موقعه- الفطرية-، وعندئذ سيغمُرك الندم، ويعصِرُك الأسى! وتقول معي- في انكسار- : واضيْعةَ العمر! الذي استهلكته قبل أن أعرف هذا العبد الصالح، والعالم الناصح! " فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد" غافر.

وبعضُ الأغرار – مع الأسف– لم يعرفوا هذا الأنصاريَّ العبقريَّ، إلا بمصنَّفِه النقْدِيِّ الزِّلْزالِ" الأخطاء الستة..." الذي قال فيه ما قال- شاهدا على العصر- ومضى إلى أحكم الحاكمين، وأسرع الحاسبين، وأرحم الراحمين!. أما النَّفَائسُ الأخرى؛ فهم منْها عَمُون!

فتعلَّمُوا "فقه الاختلاف" ياإخوتي! تَّسِعْ صُدُورُكُم! فإنه ما شرطُ العالِمِ أن يكون موافقا للناس؛ بل شرطه–فقط– أن يتحرى الحقَّ، و يحُرِّرَ القصدَ، ويقبلَ النَّقْدَ. "ولا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها"سورة الطلاق.

ومن شهِد الجِنازَةَ العظيمة؛ أدرك أن الأنصاري — رحمه الله– نال محبةَ المُنْتَقِدِ، وَالمُنْتَقَدِ، والموافق، والمفارق، والحاكم والمحكوم؛ إلا نَزْراً يسِيراً من الشباب، ليسوا في العير ولا في النفير من قصة الكتاب[22]! ويتوب الله على من تاب! وعلى مثل هؤلاء– ربما– يصدق المثل السائر: "أهل الميت صبروا، والمعزُّون كفروا" !

---

[20] كما قال حافظ المغرب، الإمام ابن عبد البر– رحمه الله– في جامع بيان العلم

[21] ولا ننْسَ – بكل حال– المقولة المنْهجية الراشدة، لإمامنا مالك رحمه الله : "كل يؤخذ من كلامه ويترك، إلا صاحبَ هذا القبر" وماكان يردده الفقيد فريد نفسه أيضا في غير مناسبة: "خذ ما صفا، دع ما كدر"!

[22] كتاب"الأخطاء الستة".

عِبْرة وعَبرة:

من الذكريات التي لا تُنسى: أنني صادفت الأخ الأنصاري -رحمه الله- في ندوة الخطباء، بالدار البيضاء؛ فألفَيْتُهُ مهْموماً- على غير عادته- فسألته عن حاله؛ فقال: الحمد لله، الحمد لله..، نالني ياأخي، بسبب كتاب"الأخطاء الستة..." أذىً كثيرٌ، وما أنْصَفَني صغيرٌ ولا كبيرٌ! فسلَّيْتُهُ بكلمات، وسكَّنته بدعوات، ثم قلتُ مداعباً: لقد حرَّكت ياشيخ، الماءَ الرَّاكدَ..!! أوْ كَسَّرْتَ ما يُسمَّى بالفرنسية"les tabouts " "الطابُوَات"، (المحظورات) وغامرتَ حقيقة ... !! (أو كلاما هذا معناه)؛ فقال: إي والله! وهذا ما كان. فَعَقَّبْتُ قائلاً: وهل استخرت الله ياشيخ، فيما كتبت؟ قال: فعلتُ. ثم سألته ثانية: وهل استشرتَ الحكماء فيما أقْدَمْتَ عليه؟ قال: نعم. قلتُ: إذاً، ففوض الأمر إلى مولاك!.

ثم ألحَّ عَلَيَّ- يرحمه الله- في الزيارة، (رفقةَ شيخنا الشريف التجكاني)، وبالغَ في التَّرْحِيبِ والتحَفِّي؛ فوعدتُه خيراً، وودَّعتهُ وأنا مشفقٌ على حاله؛ مردداً: قدر الله وما شاءَ فعَلَ! لاحول ولا قوة إلا بالله!

ولما عدتُ إلى فرنسا؛ هتفْتُ به- بمعية الأخ الطبيب الدكتور النبخوت – سلمه الله- وعهِدْنَا إليه أن يَطويَ كل الملفات الساخنة، والحساسة، وينسى "الأخطاء الستة.." والسبعة...، وما تَنَاسَلَ منها وتفرع! ويتفرَّغ للعلاج؛ فوعدَنَا بذلك ووفَّ- رحمه الله-!

وقال-يغفرالله لنا وله- في كلامٍ -منشور- يقْطُرُ ألما وحسرةً -:"هذا الكتاب له قصة أخرى..! قصة غير ما تصور الناس من ظواهر، ربما كان بعضها صحيحا..! والزمان كفيل بكشف الحجب!

إنه كتاب أجرى الله مقاديره على لساني، وبخط بناني؛ فنالني بسبب ذلك من البلاء والابتلاء ما الله به عليم! أما حالي آنئذ ونيتي وقصدي، وخالص وجهتي، فذلك أمر بيني وبين ربي! ... ولا أقول – بعد هذا – إلا كما قال سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم: ((اللَّهُمَّ إليكَ أشْكُو ضُعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وهَوَانِي على النَّاسِ! يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِينَ!.. أنْتَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وأنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وأنتَ ربي. إلى من تَكِلُنِي؟ إلى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي؛ أم إلى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أمري! إنْ لم يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَليَّ فلاَ أُبَالِي! وإنَّ عَافِيَتَكَ أوْسَعُ لِي! أعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الذَّي أشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وصَلَحَ عَلَيْهِ أمْرُ الدُّنْيَا والآخِرَةِ؛ أنْ يَنْزِلَ بِي غَضَبُكَ، أو يَحُلَّ بِي سَخَطُكَ! ولَكَ العُتْبَى حتَّى تَرْضَى.. ولاَ حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بِكَ!)).[23]

بيان وختام

ياإخوتي الأعزاء، يامن استكثرتُم علينا كلمات رثاء في حق الفقيد فريد! اعلموا —سلمكم الله- أن رثاءنا للأستاذ، وحبنا له، وتأسِّينا به، ووفاءنا له، لا يعني بوجه من الوجوه، أنه كاملٌ معصومٌ -**ما هَمَّ وَلاَ لَمَّ**- أوْ أننا نعتقد فيه- والعياذ بالله- ما لا يحل اعتقاده! أوْ أننا نتعصب له، ونتبنى كلَّ اجتهاداتِه وآرائه- بلا تأمل ولا تبصر- أو نراه بديلا عن غيره، لا نتخطاه ولا نتعداه! كلا وحاشا! ولكننا نعتقد -والعلم عند الله- أن الأستاذ الدكتور -بكل حال- هو واحد من علماء الملة، و"عَلَمٌ من أعلام الأمة" —كما وصفه العلامة الدكتور مصطفى بنحمزة- وغيره من الكبار، وأن الله تعالى سيبارك في علمه وسعيه؛ حتى يبلغ الآفاق، ويدخل على الناس من كل باب وطاق! رغم عمره القصير، وزمنه اليسير! وَ "رُبَّ عمر قليلةٌ

[23] ضعف بعض المحدثين هذه الرواية، بيد أن رائحة النبوة تقطر منها (كما قال أحد العلماء المعاصرين).

آمادُه، كثيرة أمدادُه" و" من بورك له في عمره؛ أدرك في يسيرٍ من الزمن من مِنَن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة، ولا تلحقه الإشارة"[24] و"العبرة بعَرْض العمر لا بطوله"- كما كان يردد الفقيد فريد- نفسُه، رحمه الله-.

فإلى رحمة الله وعفوه وكرمه ياأبا أيوب! إن شاء الله.

وداعا. وداعا. يافارس القرآن، إلى أن يجمعنا الله - بمحض فضله- في مستقر رحمته، ودار كرامته، وداعا وداعا..........وسلام الله عليك حيا وميتا. السلام السلام.........

[24] كما قال الحكيم ابن عطاء الله السكندري- رحمه الله-